المقارنة

بين المعري والخيام(١)

نقوم محاضرتي على المقارنة بين شخصيتي شاعرين حكيمين هما ابو العلاء المعري العربي وعمر الخيام الفارسي واكبر الظن ان ليس في الحاضرين الكرام من لا يعرف شيخ المعرة الكبير او يجهل ادبه ورأيه في الحياة ونظره في الكون ، اذ انه اشهر من نار على علم ، لذلك ارى من الضرورة ان انكلم اولاً عن شخصية عمر الخيام . حتى اذا اطلعتم عليها وفهمتم مناحيها ، سهل علينا جميعنا الانتقال الى الالمام برأي هذا الحكيم الفارسي ومعرفة اوجه الشبه بينه وبين حكيمنا الجليل ابي العلاء . وقبل ان اخوض هذا البحث ارغب ان بين لكم وجه اهتدائي الى هذا الموضوع وما هي الاسباب التي دفعتني الى معالجته وما علاقة فتى عربي بالفارسية وما هي صلته بهذا المفكر الفارسي ؟ .

ولدت في كربلاء ، ولا اغالي اذا قلت انها المدينة التي يحج اليها في كل عام مائة الف فارسي ، لزيارة تربة سيدنا الحسين الشهيد واخوانه ، ولا يقنع هؤلاء الزوار وفيهم العالم والغني والامير بالمكوث فيها بضعة ايام ، بل فيهم من يبقى فيها مجاوراً اعواماً طويلة ، وفيهم من ينقل اليها تجارته واعماله ويتخذها له موطناً ثانياً . فيقتضي هذا الاختلاط اصبح كل من ولد او سكن فيها يتكلم بالفارسية ويلم بها على اختلاف لهجاتها .

ولما فتحت عيني في كربلاء ونرعرعت فيها ، واخذت اميز بين الخير والشر ، والنار والنور ، وجدت نفسي اتكلم بالفارسية العامية كباقي الفتيان ، بيد اني وجدت في بيت ابي عجوزاً شمطاء قد وهن عظمها ، وفشا المشيب في رأسها ، ووجدت كل من في البيت يضمر لها حباً كثيراً ويحترمها احتراماً شديداً ، وكانت (زن اغا) او (بي بي جان) الآمرة الناهية في طول البيت وعرضه لا يعصى لها امر ، ولا ترد لها ارادة ، وقد نشأت على احترامها كسائر افراد العائلة غير اني كنت اجهل علاقة هذه الفارسية ببيت والدي ،

(١) محاضرة القاها في بهو المجمع العلمي العربي الاستاذ السيد احمد حامد الصراف من ادباء العراق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد قصت عليّ امي امرها فعلمت انها كانت زوجة غني فارسي ، كان قد هجر وطنه شيراز وشد الرحال الى كربلاء زائراً فطاب له العيش فيها ، فأصبح مجاوراً ، وقد توثقت بينه وبين جدي اواصر المحبة والوداد ، فكانا يتهاديان و يتزاوران ، غير ان نكد طالعه جره الى استعمال الافيون فاستنزفت امواله فأنزل من عرش الثراء واجلس على بساط الفقر ، فهجره خدامه وتركته حاشيته ، واصبح مثقلاً بالديون ، واخيراً صرعته هذه الآفة وسلبته روحه ، وبقيت زوجته وحيدة لا معين لها ولا نصير ، الى ان طحنها الفقر ووطئها الحزن فوقعت مريضة . ولما بلغ جدي ما جرى لها هزته الحمية وحركته المروءة فنقلها الى بيته وجاء لها بالاطباء فعالجوها حتى شفيت وقوي جسدها ، فجعلها مربية لاولاده وبناته ، وكان يحترمها ويحسن معاملتها ويوصي بها خيراً . وكانت (زن اغا) احدى حفيدات (فتح علي شاه) ملك فارس القاجاري وهي على جانب عظيم من الفضل والادب والاخلاق وكانت لبيبة تجيد الانشاء وتنظم القريض في الفارسية ، وتستظهر اروع الشعر واحسنه في الفارسية وكانت تلم بنكات الشعراء وتحفظ الشيء الكثير من الامثال الفارسية والعربية ، وقد تولت (زن اغا) تعليم امي واخواتها ، ادركتها ولم يبق في فمها غير ناب واحد ، وكنا اذا اجتمعنا عندها في ليالي الشتاء حدثتنا حديثاً لذيذاً عن نكات الشعراء والادباء حتى يتغشانا النعاس فتصرفنا الى مضاجعنا واحداً اثر واحد .

في احدى ليالي الشتاء من سنة ١٩١٨ اجتمعنا عند (زن اغا) وكانت تدير علينا اكواب الشاي وقد امسكت بيدها غليونها الطويل واستعدت لتقص علينا مما خزنته في صدرها .

قالت : احدثكم الليلة عن احد القلندرية واسمه عمر الخيام وكان سكيراً مدمناً للخمرة مفتوناً بالمشمشة كافتتان ابي نواس بها :

حمل ذات يوم ابريق خمرته وصعد الجبل ليحسو كؤوسها وكانت تصحبه ابنته وبينما كان يمتع نفسه بلذيذ طعمها هبت ريح شديدة فحطمت ابريق مدامه وانسكب ما في الابريق على الارض فغضب وقال مخاطباً الرب بهذه الرباعية :

ابريق مي مراشكستي ربي ... برمن درعيش رابيستي ربي
برخاك فكندي مي كلكون مرا ... خاكم بدهن مكر تومستي ربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اي - يا الهي حطمت ابريق خمري واوصدت باب الطرب في وجهي وقد سكبت على الارض خمرتي اللازوردية تراب بفمي فهل انت مثلي سكران يا الهي .

ولما اتم انشاد هذه الرباعية اسود وجهه حالاً فقالت له ابنته يا ابتي لقد اسود وجهك فطلب المرآة ونظر الى وجهه فالفاه اسود فاحماً فعلم ان الله قد غضب عليه فخاطب الله مستغفراً بهذه الرباعية .

ناكرده كنه درجهان كيست بكو وانكس كه كنه نكردجون زيست بكو
من بد كنم وتو به مكافات دهي بس فرق ميان من وتوجيست بكو

اي — يا الهي قل لي من الذي لم يرتكب خطأ في هذه الحياة وكيف عاش انسان ولم يرتكب خطيئة ؟ انا اعمل سوءاً وانت تقابلني بسوء مثله اذاً اي فرق بيني وبينك يا الهي .

وبعد انشاد هذه الرباعية عاد وجهه الى ما كان عليه .

بهذا حدثتني (زنانا) عن عمر الخيام قبل اثني عشر عاماً ، وقد بعثت هذه الاسطورة اللذيذة في نفسي رغبة الاطلاع على شعره ومعرفة شخصه ، فطلبت اليها ان تدرسني ديوانه فرفضت طلبي زاعمة ان في شعره ما لا يتفق مع الشرع فالححت عليها الحاحاً شديداً فاخذت تدرسني رباعياته . واذا بي امام شاعر حكيم وفلكي شهير وفيلسوف مفكر له نظرة في الحياة غير هذه النظرات وتأمل في الكون غير هذه التأملات ، وانه لم يكن بالقلندري السكير وانما كان رجلاً فذاً منقطع النظير وانه يعد بلا مدافع من حكماء المسلمين المفكرين .

اما وقد اطلعتم الآن على الاسباب التي دفعتني الى البحث في ادب الخيام حق لكم ان تستفسروا مني سائلين من هو عمر الخيام ، وفي اي عصر عاش ، وما هو رأيه في الحياة وما هو اثر ادبه ورأيه في الفرد وفي المجتمع ؟ :

* * *

في سنة ١٩٢٧ نشر العالم الكبير الدكتور (ميلار) مقالاً في جريدة (المورنن وست) ادعى فيها ان شخصية عمر الخيام محاطة بغلالة من غموض وابهام . وقد نسجت حوله اساطير غامضة تدعو الى الشك في وجوده ، وجاء ببراهين واهية واهنة انكر فيها عمر الخيام وزعم انه كان شخصاً موهوماً قد تخيلته ادمغة الناس تخيلاً فانبرى له اذ ذ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العالم الجليل القدر (السر دنيسون روس) مدير مدرسة الدراسات الشرقية في لندن وفند اقواله بدلائل تنحصر في خمس نقاط ، ولما كنت قد قضيت بضعة اعوام في درس حياة هذا الحكيم وادبه شعرت في نفسي بقوة للرد عليه فرددت عليه بمقال اثبت فيه شخصية المبحوث عنه بثلاث عشرة وثيقة تاريخية لا غبار عليها ، واذ كان الذي يهمنا انما هو الاطلاع على ترجمته لذلك اكتفي بسرد الوثائق الهامة منها :

* * *

ان من اقدم الوثائق التاريخية التي ورد فيها اخبار عن عمر الخيام وحوادثه كتاب (جهار مقاله) لمؤلفه احمد بن عمر بن علي النظامي العروضي السمرقندي الذي تتلمذ لعمر الخيام وزار قبره في سنة ٥٣٠ هـ فقد قيل له ان استاذه توفي منذ اربع سنوات .

والنظامي هذا ذكر في المقالة الثالثة التي خصها باخبار الفلكيين ماتعرب به : في سنة ٥٠٦ هجرية في مدينة (بلخ) وفي صرح سراي (امير بو سعد جره) حظيت بمقابلة الاستاذ عمر الخيام والامام مظفر اسفزاري وفي اثناء الحديث سمعت حجة الحق اي (عمر الخيام) يقول انني اذا مت فان قبري سيكون في مكان تهب عليه نسمات الشمال و ينتشر عليه الزهر والورد — وقد اخذني العجب من قوله لاني كنت اعتقد ان خياماً لا يتكلم الا عن روية . وفي سنة ٥٣٠ هجرية بلغني ان التراب قد اخفى ذلك العظيم منذ اربع سنوات وترك العالم السفلي يتيماً . واذ كان له حق التعليم علي ذهبت الى زيارة قبره يوم الجمعة ومعي رجل يدلني على قبره فأخذني الى مزار حيرة والتفت الى اليسار فالفيت قبر عمر الخيام بجانب جدار حديقة مهجورة وقد نبت حول القبر اشجار المشمش وكان منوراً وكان الزهر يتساقط على قبره حتى توارى قبره . وقد ذكرت ما قاله لي في بلخ فبكيت ولم اجد في هذا العالم نظيره اسكنه الله تبارك وتعالى جنانه بمنه وكرمه .

وبين هؤلاء الشهرزوري شمس الدين محمد بن محمود : وقد ذكر عمر الخيام في كتابه (نزهة الارواح وروضة الافراح) الذي الفه بين سنة ٥٨٦ — ٦١١ .

عمر الخيام نيسابوري الآثار والميلاد كان تلو ابي علي (ابن سينا) في معرفة اجزاء علوم الحكمة الاانه كان مي الخلق ضيق العطن تأمل كتاباً باصبهان سبع مرات وحفظه وعاد الى نيسابور فأملاه فقوبل بنسخته الاصلية فلم يوجد بينهما تفاوت . وله ضنة بالتصنيف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والتعليم وله مختصر في الطبيعيات ، ورسالة في الوجود ورسالة في الكون والتكليف وكان عالماً بالفقه واللغة والتواريخ .

ودخل عمر يوماً على شهاب الاسلام الوزير عبد الرزاق وكان عنده امام القراء ابو الحسن الغزالي وكانا يتكلمان في اختلاف القراء في آية فقال الوزير على الخبير سقطنا فسئل عمر عن ذلك فذكر وجوه اختلاف القراء وعلل كلام كل واحد منهم وذكر الشواذ وعللها وفضل وجهاً واحداً فقال الغزالي كثر الله في العلماء مثلك اجعلني من ادمه [1] اهلك وارض عني فاني ما ظننت احداً من القراء في الدنيا يحفظ ذلك ويعرفه فضلاً عن واحد من الحكماء . واما اجزاء الحكمة من الرياضيات والمعقولات فكان ابن بجدتها .

ودخل حجة الاسلام الغزالي عليه وسأله عن تعيين جزء من اجزاء الفلك القطبية دون غيرها مع كونه متشابه الاجزاء فطول الخيام الكلام وابتدأ من الحركة من مقولة كذا وضن بالخوض في محل النزاع وكان هذا من دأب ذلك الشيخ المطاع حتى اذن الظهر فقال الغزالي جاء الحق وزهق الباطل وقام .

وكان السلطان ملكشاه ينزله منزلة الندماء والخاقان شمس الملوك ببخارى يعظمه غاية التعظيم ويجلس الامام معه على سريره .

وممن ذكره من مؤرخي العرب الوزير جمال الدين ابو الحسن علي ابن القاضي الاشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ قال :

امام خراسان وعلامة الزمان يعلم علم اليونان ويحث على طلب الواحد الديان بتطهير الحركات البدنية لتنزيه النفس الانسانية ويأمر بالتزام السياسة المدنية حسب القواعد اليونانية ، وقد وقف متأخرو الصوفية على شيء من ظواهر شعره فنقلوها الى طريقتهم وتخاطروا بها في مجالسهم وخلواتهم وبواطنها حياة للشرع الواسع ومجامع للأغلال جوامع ، ولما قدح اهل زمانه في دينه واظهروا ما أسره من مكنونه خشي على دمه وامسك من عنان لسانه وقلمه وحج متنافاة لا تقية وابدى اسراراً من السرار غير نقية ولما حصل ببغداد سعى اليه اهل طريقته في العلم القديم فسد دونهم الباب سد النادم لا سد النديم ورجع من حجه الى بلده يروح الى محل العبادة ويغدو ويكتم اسراره ولا بد ان تبدو

(١) كذا في الاصل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان عديم القرين في علم النجوم والحكمة وبه يضرب المثل في هـذه الانواع لو رزق العصمة وله شعر طائر تظهر خفياته على خوافيه وتكدر عرق قصده كدر خافيه . فمنه :

اذا رضيت نفسي بميسور بلغـة ... يحصلهـا بالكد كفي وساعدي
امنت تصاريف الحوادث كلها ... فكن يازماني موعدي اومواعدي
اليس قضى الافلاك من دورها بان ... تعيـد الي نحس جميع المساعد
فيا نفس صبراً عن مقيلك انمـا ... تخر ذراهـا بانقضاض القواعد
ولي فوق هـام النيرين منازل ... وفوق مناط الفرقدين مصاعدي
متى ما دنت دنياك كانت بعيدة ... فواعجبي من ذا القريب المباعد
اذا كان محصول الحياة منية ... فسيان حالاً كل ساع وقاعد

جاء في (ج ٤ ص ٦١) من تاريخ روضة الصفا للمؤرخ الفارسي الشهير خواند مير نقلا عن وصايا الوزير نظام الملك ما ملخصه :

قرأت اربع سنين على الاستاذ موفق الدين النيسابوري فصادفت عنـده تلميذين ذكيين عمر الخيام وحسن الصباح ، فصادقتهما وكنا بعد الدرس نجتمع لتكراره والمذاكرة فيه وعندما اجتمعنا يوماً لمثل ذلك قال لنا حسن الصباح لقد اشتهر ان من يقرأ القرآن او الحديث على الاستاذ موفق الدين يصبح ذا حظ عظيم ومنزلة سامية فاذا كان احدنا مصداقاً لذلك فما الذي يجب عليه لصديقيه فقلت له فما رأيك انت قال ان يشرك كل منا صديقيه فيما يناله من النفع فاتفقنا على ما رآه .

وبعد حين من الدهر جاءني عمر الخيام على عهد السلطان الب ارسلان السلجوقي فقابلته بمزيد الحفاوة وقلت له الآن وجب علي ان ابين درجة علمك وفضلك للسلطان واطلب منه ان يجعلك ملازماً لمجلسه حتى نكون شريكين في الجاه عنده كما كنا شريكين في الدرس لدى موفق الدين ، فقال اشكر لك حسن ظنك بي ، ولكن افضل ان تأمر لي بشيء اصلح به شأني كي اتمكن من ممارسة العلو ومزاولة الفنون لان ملازمتي لمجلس السلطان تمنعني عما اتوخاه ، فجعلت له راتباً سنوياً قدره ١٢٠٠٠ ذهباً يتقاضاها من املاك نيسابور .

وبعد برهة من الزمن قدم عمر الخيام مرو على عهد السلطان ملك شاه السلجوقي وكان قد اشتهر في العلوم شهرة فائقة ولا سيما في الرياضيات وعلم الفلك فنال حظوة عظيمة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عنده وحاز منزلة كبار العلماء والحكماء ، ولم يجد نظام الملك في حسن الصباح خيراً لانه اراد مزاحمته في الديوان .

* * *

ولقد علمتم الآن ان عمر الخيام نيسابوري المنشأ وانه عاش في اكناف الدولة السلجوقية وعاصر ملكشاه الب ارسلان وقد تتلمذ في عنفوان شبابه لموفق الدين النيسابوري مع نظام الملك والحسن الصباح في مدرسة واحدة وانه زار بغداد وتحاور مع الامام الغزالي في قضايا شرعية وفلكية وقد اثنى عليه الامام الغزالي وان له تآليف قيمة في العلوم الشائعة في عصره وانه قد توفي في اوائل القرن السادس الهجري . بقي علينا ان نفهم ماهي الافكار التي تجول في خاطر الحكيم وما هي تلك النظرة التي كان يرسلها الى الحياة وما هي فلسفة هذا الرجل الذي ملأت شهرته ارجاء العالم واستهوى شعره الناس .

ارى ان اتلو على مسامعكم طرفاً من شعره ليتوضح لكم جلياً رأيه الصريح قال :

زآن بيش كه غمهات شبيخون آرند ... فرماي كه تابادهٔ كلكون آرند
توز رنهٔ اي غافل نادان كه ترا ... در خاك نهند و باز بيرون آرند

قبل ان تهاجمك همومك مرهم ان يأتوك بمدامة وردية . انت لست ذهباً ايها الجاهل الغر ليدفنوك في التراب ثم يخرجوك .

اي آنكه نتيجهٔ جهار وهفتي ... در هفت وجهار دائم اندر تفتي
مي خور كه هزار بار بيشت كفتم ... بازآمدنت نيست جور فتي رفتي

يا من هو نتيجة اربعة عناصر وسبع سموات حتى م انت تتألم بالتفكر فيها اشرب الخمرة فقد قلت لك الف مرة مالك من اوبة فاذا ذهبت ذهبت .

جام ومي وساقي بر لب كشت ... بهتر ز بهشتي كه خير بودش دشت
مشنو سخن بهشت ودوزخ از كس ... كه رفته بدوزخ و كه آمد زبهشت

ان خيراً من الفردوس الذي وعدته كأس وخمرة وساق في جنب روضة . لا تسمعن من احد حديث الجنة والجحيم من ذا الذي ذهب الى الجحيم ومن ذا الذي جاء من الجنة .

جون حاصل آدمي درين جاي دودر ... جزد رد دل ودادن جان نيست دكر
خزم دل انكه يك نفس زنده بنود ... وآسوده كسي كه خود نزاد ازمادر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان حاصل الانسان من هذه الدار ذات البابين الالم وزهوق الروح . فهنيئاً لمن يعيش ساعة وطوبى لمن لم يولد من امه .

روزي كه دومهلتست ميخورمحو ناب كاين عمر دوروزه برتكردد در ياب
داني كه جهان رو بخرابي دارد تومنيز شب وروزهمي باش خراب

اشرب الخمرة الصافية مرتين في كل يوم . فان هذا العمر القليل لا يعود اليك مرة اخرى مادمت تعلم ان مصير الكون الى الخراب . انت ايضاً كن خراباً ليلاً ونهاراً .

ازحادثهٔ زمان آينده مبرس وزهرجه رسد جونيست بابنده مبرس
اين يكدمه نقدر اغتميت ميدان از رفته مينديش وزآينده مبرس

لا تسل عن حادث الزمان الآتي وعن كل ما يصيبك منه لانه لا يدوم اغتنم الساعة التي انت فيها ولا تفكر فيما مضى ولا تحفل بما يأتي .

لقد بان لكم رأي عمر الخيام في الحياة عريان صريحاً فان نظرة واحدة الى المعاني التي تضمنتها هذه الرباعيات تكفي لان توضح للباحث ان الطريق الذي يوصينا الخيام ان نسلكه هو طريق مظلم خطر يضل الانسان فيه ولا يهتدي الى السبيل السوي فان هذه الفلسفة السلبية التي بمقتضاها يتجرد الانسان عن كل شيء سوى الساعة التي يعيش فيها فلسفة هدم وتخريب لا فلسفة بناء وتعمير لانها فلسفة ترمي الى هدم امسنا الذي نحن ابناؤه والذي نستمد منه عناصر القوة في يومنا لنعيش في غد عيشة رغدة .

امس واليوم وغد سلسلة ذات حلقات ثلاث لا تنفصم عراها ولا تنفك احداها عن الاخرى ولا يمكن تصور تجزئتها لانها الحياة والحياة لا تتجزأ لان عناصر الحياة قوة واحدة في شكل مادة واحدة وان اختلفت مظاهرها وحياتنا اليومية حافلة بالاحلام والاماني والآلام وغيرها مما يختلج في الصدر في كل لحظة و يرد على الخاطر في كل برهة والانسان لا يستطيع ان يتخلى عن امانيه وآلامه واحلامه وخيالاته واوهامه اذ لا مندوحة له من هذه السلسلة التي لا تنفك تتجدد في كل يوم بل في كل لحظة ، على ان هذه الانفعالات كلها وليدة الحوادث وكل حادث يستحيل الى ماض بمجرد وقوعه وهذه المشاكل او الانفعالات النفسية تحتاج الى متسع من الوقت لحلها وهذا الوقت هو الغد فأمس واليوم وغد حلقات الحياة والوجود وكلها سلاسل وقيود لا يمكن التملص منها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اذاً فما هو السر الذي جعل الناس يتهافتون ويتلذذون بآرائه وكلماته .

لقد اراد عمر الخيام ان يحل المعضلة العظيمة التي لم يستطع ان يحلها احد قبله ، اراد ان يفهم الحياة ففشل ولما فشل تشاءم ولما تشاءم اخذ يصور الحياة بابشع صورة وزعم انها ملأي بالاوجاع والاتراح مترعة بالأذى ، لذلك حثّ على عدم الاهتمام بها واوصى بطلب اللذة اغتناماً لهذه الفرصة فهذه الفلسفة السلبية تلائم ذوق الفرد خصوصاً البائس المتألم ، ورأي الخيام في الحياة يتلخص فيما يلي :

ما دام ليس في امكاننا ايقاف دورة الفلك وما دمنا لا نعرف من اين جئنا والى اين نذهب وما دمنا مسيرين لا مخيرين وما دام العمر قصيراً والحياة اذيّ فيجب قتل هذا الوقت المؤلم القصير بالخمرة وعدم الاهتمام بالتقاليد .

هذه كلمة موجزة في فلسفة عمر الخيام ، والآن نعود الى اصل الموضوع وهو المقارنة بين المعري والخيام .

* * *

كنت في اثناء درسي لرباعيات الخيام اشعر بوجود نسب متين وقرابة فكرية بين هاتين الشخصيتين وكنت كلما امعنت النظر في فلسفة الخيام ازددت عقيدة بوجود شبه عظيم بين هذين الفذين ، ولو ان توأمين نشآ في حضن أب وأم وتعلما في مدرسة واحدة وتربيا في بيئة واحدة وطرأ عليهما من شؤون الحياة في الصغر والكبر ما يكونان به شريكين فيه فتماثلت اخلاقهما وطباعهما وتقاربت آراؤهما ونظراتهما في الكون ، لقلنا ان المعري والخيام اخوان شقيقان وفرعان من غصن واحد فكأن المشيئة الآلهية قد قدتهما من أديم واحد وجبلت طينتهما في آنية واحدة وفي آن واحد وحبتهما طبعين وفكرين متقاربين متشابهين .

***

ان من غريب الاتفاق ان يكون الحكيمان متماثلين في الاخلاق فكلاهما كان منقبض النفس ضيق الصدر منزوياً عن الناس زاهداً فيما بايديهم مائقاً لهم مستهزءاً بهم مستخفاً بعقائدهم ومبادئهم وكلاهما مبغض للدنيا متطال لامور غامضة أجل شأناً واعظم قدراً من حطامها وكلاهما متطلع تائق الى اسرار الحياة معنى بها ، وكلاهما ابي النفس صادق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القول مطلق الرأي جريء على البوح بمذهبه ، الا فترات كانا كلاهما يراعي فيها خواطر الناس خشية الاذى والضرر وكلاهما فقير لم يملك شيئاً من حطام الدنيا ، ولو ارادا لنالا وفراً وذهباً وفضة ، وكلاهما عاش عزبا لم يتزوج وكلاهما نشأ في عصر حافل بالعلوم والمعارف فائض بالآراء الفلسفية ، اذ في عصرهما ظهر مذهب الاسماعيلية والباطنية وفي عصرهما اجتمع اخوان الصفاء خفية وابرزوا رسائلهم الشهيرة . واقوال الفيلسوفين على تقارب في العلوم والمعارف . اما تآليفهما فقليلة ايضاً وأما السياسة في زمانهما فمتشابهة فقد كانت نار الفتنة مشتعلة في سورية في عصر المعري . واما فارس فقد كانت رحى الحرب فيها دائرة كل المدة التي عاش فيها الخيام فانه نشأ في اكناف الدولة السلجوقية التركية التي قامت مقام لدولة الغزنوية ولم تقم تلك الدولة الا بالسيف وكان الخيام يشهد ذلك وقد اتسع سلطان هذه الحكومة في ايام ملكشاه ٤٦٥—٤٨٥ الذي كان يجل عمر الخيام اجلالاً عظيماً حتى عهد اليه بناء الرصد وترتيب الزيج . وفي عهده اسس زميله وشريكه في الدرس (حسن الصباح) مذهب الباطنية وفي ايامه ارتكب الباطنية المنكرات والموبقات وفيها اغتيل زميله وشريكه الآخر (نظام الملك) بطعنة باطني .

تضاربت آراء الباحثين في السنة التي ولد فيها عمر الخيام كما تشعبت آراؤهم في السنة التي توفي بها فالمؤلفون الغربيون يرجحون ان وفاته كانت سنة ٥١٧ هجرية وهو القول المشهور وقد ذكرت اقوال عديدة في وفاته وكلها بين سنة ٥٠٨ —و٥٣٠ وعلى كل حال فانه توفي في اوائل القرن السادس للهجرة وذكر عن النظام — وهو تلميذ خيام — انه زار قبره في نيسابور سنة ٥٣٠ وقيل له ان الخيام توفي منذ سنوات .

وذكر البيهقي في كتابه حكماء الاسلام وفاته فقال : حكى لي خنثه الامام محمد البغدادي انه كان يتخلل بخلال من ذهب وكان يتأمل في بحث الالآهيات من الشفاء فلما وصل الى فصل (الواحد والكثير) وضع الخلال بين الورقتين وقام وصلى واوصى ولم يأكل ولم يشرب فلما صلى العشاء الآخرة سجد وكان يقول في سجوده اللهم تعلم اني عرفتك على مبلغ امكاني فاغفر لي وان معرفتي اياك وسيلتي اليك ومات رحمه الله تعالى .

اما ابو العلاء المعري فقد اجمعوا على انه ولد في سنة ٣٦٣ هجرية وتوفي عاشر ربيع الاول من سنة ٤٤٩ . فعلى هذا يكون المعري اقدم من الخيام بما يزيد على نصف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قرن وهي مدة كافية لنشر كتب ابي العلاء ورسائله ودواوينه في اقطار العالم الاسلامي ولا يبعد ان يكون الخيام اقتنى كتب ابي العلاء في طريقه الى الحجاز واطلع عليها . على اننا لا نريد ان نتهم الخيام ولا نغض من قدره ولا نقدح في علمه وفضله وعبقريته انما نريد ان نبحث عن هذه الاراء المتشابهة التي اشترك فيها الحكيمان ، فالمعري متقدم على زميله وعربي بحت لا يعرف الا اللغة العربية والخيام متأخر فارسي مستعرب يعرف اللغتين وله شعران عربي وفارسي .

فهل الخيام عيال على المعري في مذهبه الفلسفي والشعري ينبغي ان نذكر أمثلة بهذا الخصوص .

« اتهامهما بالزندقة »

كان كل واحد من الشيخين متهماً بضعف الايمان والمروق عن الشريعة وموصوماً بالتعبير الذي كان شائعاً في ذلك العصر وهو (الزندقة) ذلك الجرم الذي ما الصق باحد الا كان جزاؤه الموت وكانت فرائص الاحرار ترتعد خوفاً منها وقد ذهب بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس والحلاج والسهروردي وغيرهم ضحايا هذه التهمة .

اما ابو العلاء فقد ذكروا انه دخل عليه ذات يوم رجل من قراء المعرة يعرف بابي القاسم فطلب منه بعض الناس ان يقرأ بعضاً من الآي الكريم فقرأ (ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى واضل سبيلا) يريد بذلك إهانة الشيخ ، وقد تألم ابو العلاء من ذلك الوقع فهجاه ببيتين .

ودخل عليه الوزير المشهور بالمنازي فسأله ما هذا الذي يرويه عنك الناس؟ قال : قوم حسدوني فكذبوا علي وقد تركت لهم الدنيا قال المنازي والآخرة فقال ابو العلاء (والآخرة ؟) ثم اطرق ولم يكلمني حتى قمت عنه .

وزاره بعض القضاة فقال له ابو العلاء لم اهج احداً . قال صدقت الا الانبياء قال فتغير لونه .

وقد ابتلي عمر الخيام بما ابتلي به صاحبه فقد وصمه (شيخ نجم الدين الرازي) في كتابه (مرصاد العباد) الذي الفه سنة ٦٢١ هجرية بانه ممن يدين بدين الفلاسفة والدهريين الطبيعيين وكان القائلون بهذا المذهب كفاراً ضلالاً في نظر الناس وقد احتج نجم الدين على ضلاله وزندقته باحدى رباعياته وقد تقدم ذكرها في ترجمته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومما يؤيد ظن الناس به ظناً سيئاً واتهامهم له بالزندقة قول (القفطي) (ولما قدح اهل زمانه في دينه واظهروا ما اسره من مكنونه خشي على دمه وامسك من لسان قلمه وحج متاقاة لا تقية وابدى اسراراً من السرار غير نقية ... الخ) وقول القفطي فيه يدل على ان الناس كانوا يناوئونه و يتناوشونه بالكلام القارص البذيء ولا اشك في ان الذين كانوا يتهجمون عليه و يغرون العوام بايذائه هم رجال الدين وهذا شأنهم في كل عصر مع الاحرار والعظماء الا ان الخيام لم يقصر في رد كيدهم في نحورهم واظهار ما يبطنونه من المكر والخبث فقد قذعهم في كثير من رباعياته فمن ذلك قوله في المفتي واظنه كان من مناوئيه :

اي مفتي شهر ازتو بر كار تريم بااين همه مستي زتوهشيار تريم
ماخون رزان خوريم وتوخون كسان انصاف بده كدام خونخوار تريم

يا مفتي المدينة أنا احسن منك عملاً ومع كثرة سكرنا فانا أصحى منك أنا اشرب دم العنقود وانت تشرب دم الناس فانصف فأينا شراب الدماء .

« اعتقادهما بالجبر »

كان كلا الحكيمين معتقداً بمذهب الجبر دائناً به . فقد نص ابو العلاء المعري في مقدمة (اللزوميات) على انه لم يؤلف هذا الكتاب مختاراً وانما الفه بقضاء خفي لا يعرف كنهه وحقيقته . وقد ذكر الجبر في اللزوميات مراراً كثيرة مثبتاً اياه ومناضلاً عنه فمن قوله فيه :

خرجت الى ذي الدار كرهاً ورحلتي الى غيرها بالرغم والله شاهد
فهل انا فيما بين ذلك مجبر على عمل ام مستطيع فجاهد

...

ما باختياري ميلادي ولا هرمي ولا حياتي فهل لي بعد تخيير

...

جئنا على كره ونرحل رُغَّما ولعلنا ما بين ذلك نجبر

...

وردت الى دار المصائب مجبراً واصبحت فيها ليس يعجبني النقل

...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم نحلل بدنيانا اختياراً ولكن جاء ذاك على اضطرار

اما عمر الخيام فكان رأيه صريحاً في الجبر بصورة لا يحتمل الشك ولا التأويل فقد سئل في عصره عن ثلاث مسائل (احداها) كيف صدر ملازيم التضاد والشر عن الواجب مع البت بانه عز وجل يتعالى عن ان يكون مصدر شر او ظلم وجور ومع القول بامتناع تعدد الواجب . (الثانية) اي الفريقين اقرب الى الصواب وقوله اشبه بالتحقيق : الجبرية القائلون بالجبر ونفي الاختيار عن الممكن ام القدرية الناسبون الى العبد خلق افعاله . (الثالثة) ان قوماً يقولون بان البقاء من صفات المعاني اي انه صفة زائدة على ذات الباقي في الخارج فكيف يصح قولهم وما سبيل المناقشة معهم .

فاجاب عمر الخيام بكلام طويل حلل فيه هذه الابحاث تحليلاً دقيقاً وكان جوابه على السؤال الثالث صريحاً في الجبر فقد قال — واما سؤاله عن اي الفريقين اقرب الى الصواب فلعل الجبري اقرب الى الحق في بادئ الرأي وظاهر النظر من غير ان يتلجلج في هذيانه ويتغلغل في خرافاته فانه حينئذ يبعد عن الحق جداً ومما يؤيد ذلك قوله في احدى رباعياته .

آورد باضطرارم اول بوجود جزحيرتم از جهان چيزي نفزود
رفتيم باكراه وندانيم چه بود زين آمدن وماندن ورفتن مقصود

جاء بي مضطراً الى الوجود ولم ازدد غير الحيرة في هذه الحياة . ذهبنا مكرهين ولم نعلم المقصود من مجيئنا وبقائنا وذهابنا .

برهمكذرم هزار جاد ام نهي كوبي كه بكبرمت اكر كام نهي
يك ذره زحكم توجهان خالي نيست حكم توكني وعاصيم نام نهي

تضع الاشراك يا آلهي في الف مكان من سبيلي ونقول انك اذا وطأتها فانا نهلكك لا تخلو ذرة في العالم من حكمك انت تحكم وتقدر عليّ وانت تسميني بالعاصي .

« البعث بعد الموت »

كان قدماء المصريين يعتقدون بعودة الروح الى الجسد في الدنيا ، وكان فلاسفة اليونان الالآهيون ولا سيما اتباع افلاطون يعتقدون بخلود الروح الا انهم ما كانوا يؤمنون ببعث الارواح كما نصت عليه الشرائع المنزلة وكانوا ينكرون حشر الاجساد التي لا تلبث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان يتطرق اليها البلى بعد دفنها ، وزعموا ان الروح تنتقل بعد خروجها من الجسد الى عالم ملكوتي قدسي عقلي وهناك تحيى حياة إما شقية واما سعيدة لقاء ما أنته في الحياة من آثام أو اعمال مبرورة . اما ارباب الديانات فرأيهم صريح في البعث والمسلمون يعتقدون بخلود الارواح وحشر الاجساد ومن ينكر البعث بعد الموت يكفر وعقابه القتل ، والقرآن طافح بالآيات التي يستدل بها المسلمون على البعث وللمفسرين من علماء المسلمين اقوال كثيرة وآراء عجيبة في هذا البحث .

وقد انعمنا النظر في رباعيات عمر الخيام فوجدناه تارة منكراً للبعث انكاراً صريحاً مسفهاً رأي الزاعمين حشر الاجساد ومستهزئاً باقوالهم وطوراً معترفاً به مما يصعب على الباحث ان يصدر حكماً قطعياً ورأياً نهائياً بالسلب او الايجاب وقد لمس خيام هذا الموضوع استطراداً وذلك اثناء بحثه عن الخمرة وحثه الناس على شربها فمن قوله :

زآن پيش كه غمهات شبيخون آرند فرماي كه تابادهٔ كلكون آرند
نوز رنهٔ اي غافل نادان كه ترا درخاك نهند و باز بيرون آرند

صاحِ قبل ان تهجم عليك غمومك على غرة مر ليأنوك بالخمرة اللازوردية . ايها الغافل الجاهل انت لست ذهباً حتى اذا واروك التراب اخرجوك مرة اخرى .

ما لعبتكانيم وفلك لعبتباز ازروي حقيقتي نه ازوري مجاز
باز بجه كنان بديم بر نطع وجود رفتيم بصندوق عدم يك يك باز

نحن ألاعيب اطفال والفلك هو اللاعب بنا وذلك امر حقيقي غير مجازي لقد لعبنا مدة في ساحة الوجود ثم ذهبنا الى صندوق العدم واحداً اثر واحد .

فقوله (انت لست ذهباً حتى اذا واروك التراب اخرجوك مرة اخرى ، وقد ذهبنا الى صندوق العدم واحداً بعد واحد) دليل على انه لم يكن معتقداً بالحشر والنشر كما يعتقد به المسلمون غير اننا نراه في موضوع آخر يبرم ما نقضه .

از خالق كرد كار وزرب رحيم نوميد نيم به جرم وعصيان عظيم
كرمست وخراب مرده باشم امروز فردا بخشد به استخوانهاي رميم

لست قانطاً من رحمة الله الرحيم لجرمي وعصياني العظيمين وان انا مت اليوم سكران فانه سيغفر (غداً) رميم عظامي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكلة (غدا) هنا لا تفسر الا بيوم القيامة التي يكون بهـا البعث والحساب والعقاب والعذاب .

وعمر الخيام بنقضه وابرامه يشبه ابا العلاء المعري فان الثاني اضطرب رأيه في البعث اضطراباً عظيماً فكان تارةً مؤمناً به وتارةً منكراً له فمن قوله الذي أثبت فيه البعث :

واني لأرجو منه يوم تجـاوز ... فيأمر بي ذات اليمين الى اليسرى
اذا راكب نالت به الشـأو ناقة ... فما أبتقي الا الظوالع والحسرى
وان أعف بعد الموت مما يريبني ... فماحظي الادنى ولايدي الخسرى

ومن قوله الذي انكر فيه البعث انكاراً صريحاً :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البسيطة ان يبكوا
تحطمنا الايام حتى كأننا ... زجاج ولكن لايعاد له سبك

وقوله :

اما الجسوم فللتراب مآلهـا ... وعهيت بالارواح انى تسلك

على انني ارتأي ان كلا الحكيمين كان منكراً للبعث غير معتقد بحشر الاجسام وخلود الأرواح واما الابيات التي نظمها الشيخان في اثبات البعث فقد نظماها تقية وخوفاً من الناس وسخط الجمهور عليهما (والشك) ولاريب أثبت في الانسان من اليقين ولا سيما في قضية هي أقرب الى الخيال الشعري من الحقيقة اليه .

وكان ابو العلاء المعري يرى التقية ومداراة النـاس و يحتاط في اظهار آرائه ويعول على المجاز كثيراً اذ كان يخشى الاذى والاضطهاد ، وفي لزومياته شعر كثير نستدل به على ذلك فمن قوله :

اصدق الى ان ترى في الصدق مهلكة ... وبعد ذلك فاكذب قاعداً وقم

وقوله :

فاصمت فان كلام المرء يهلكه ... وان نطقت فإفصاح وايجـاز

وقوله :

اهوى الحياة وحسبي من معايبها ... اني أعيش بتمويه وتدليس
اكتم حديثك لا يشعر به احد ... من رهط جبريل اومن رهط ابليس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهذه الابيات تدل على ان ابا العلاء كان مسيء الظن بالناس كثير الحذر منهم وقد اتخذ (التقية) جنة له .

وقد حذا عمر الخيام حذو ابي العلاء المعري وسلك طريقه في دفع الاذى والضرر عن نفسه فقد ذكر « الوزير جمال الدين ابي الحسين علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي » مانصه : « ولما قدح اهل زمانه في دينه وأظهروا ماأسره من مكنونه خشي على دمه وأمسك من عنان لسانه وقلمه وحج متاقاة لاتقية وابدى أسراراً من السرار غير تقية » . ومما يؤيد قول القفطي الصراحة البارزة في بعض رباعياته التي يصح الاستدلال بها على حذره وتكتمه وعدم افشاء مايكنه ضميره خوف البُله من صغار العقول وضعفاء الحلوم .

باهر بد ونيك راز نتوانم كفت كوته سخنم دراز نتوانم كفت
حالي دارم كه شرح نتوانم داد رازي دارم كه باز نتوانم كفت

لاأستطيع ان ابوح بسري لكل طيب وخبيث انا قصير الكلام لا أستطيع ان أطيله . لي حال لا أستطيع ان أشرحها وسر لا أستطيع ان اقوله .

ولاسيما ان عصر الخيام كان عصراً طافحاً بجماعات من المتصوفة العمي الابصار والقلوب وزمر عظيمة من المتزهدين الناسكين الذين أعمى التعصب الممقوت أفئدتهم وأطفأ سراج عقولهم فكان من حقه ان يتكتم وان لايبوح بآرائه اقتداء بزميله شيخ المعرة خشية هؤلاء الكذابين الذين كانوا يلعبون بعقول العوام كما يشاؤون ويقودونهم كما يرغبون .

وقد اتعظ الشيخان بالفجائع والرزايا التي أنزلت بزملائهم وأنسبائهم في الرأي من الاحرار الذين جبلوا على الصراحة وفطروا على البوح بما تجيش به صدورهم فذاقوا من اجل ذلك عذاباً اليما .

والنطع الذي أضجع عليه صالح بن عبد القدوس ، والسياط التي ألهبت جسد الحكيم الشهيد بشار بن برد الشاعر ، والجذع الذي صلب عليه الصوفي الشهير ابو منصور الحلاج ، والسيف الذي بتر عنق الفيلسوف السهروردي وغيرهم من القطاحل الأفذاذ الى غير ذلك من الفجائع والوقائع الاليمة — كانت عبراً ودروساً .

« التناسخ »

التناسخ مذهب قديم عرف بين الهنود وشاع بين عرب الجاهلية فقد زعموا ان الانسان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اذا مات اوقتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته وانتصب هامة فيرجع الى رأس القبر على رأس كل مائة سنة وقد دمغهم الرسول (ص) وردز عمهم فقال (لاهامة ولاعدوى ولاصفر) ثم كثر علم العرب بهذا المذهب في صدر الاسلام وذلك منذ أواخر القرن الاول وكانت بعض الفرق من غلاة الشيعة تدين به كاصحاب عبدالله بن سبا[1] الذي قال لعلي عليه السلام (أنت أنت) اى أنت الاله فنفاه الى المدائن فادعى بتناسخ الجزء الالهي في الأئمة بعد علي . ومثل هؤلاء أصحاب ابي كامل[2] الذي كان يدعي ان الامامة نور يتناسخ منتقلاً من شخص الى شخص وذلك النور يكون في شخص نبوة وفي شخص يكون امامة وربما تناسخت الامامة فصارت نبوة وقال بتناسخ الأرواح وقت الموت . والغلاة على أصنافهم متفقون على التناسخ والحلول ولقد كان التناسخ مقالة لفرقة في كل أمة تلقوها من المجوس والمزدكية والهند البرهمية ومن الفلاسفة والصابئة ومذهبهم ان الله تعالى قائم بكل مكان ناطق بكل لسان ظاهر بشخص من أشخاص البشر وذلك هو معنى الحلول وقد يكون الحلول بجزء كإشراق الشمس في كوة او كإشراقها على البلور واما الحلول بالكل فهو كظهور ملك بشخص او كشيطان بحيوان ومراتب التناسخ اربع النسخ والمسخ والفسخ و لرسخ .

وقد اتخذ بعض الدعاة هذا المذهب وسيلة لنشر الدعاية لآل البيت ومن اولئك الشاعر السيد الحميري الذي أعماه التعصب فأخرجه عن طريق الصواب وليس بين المطلعين على الآداب العربية من ينكر ما كان من ترهات الحميري وسخافاته .

وقد عثر المستشرق (Zokovski) زوقوفسكي في تاريخ الالفي على حكاية استدل بها بعض الباحثين على رسوخ عقيدة التناسخ في نفس عمر الخيام فقد ذكروا انه كان أستاذاً في مدرسة (نيسابور) وكانت المدرسة في حاجة الى ترميم واصلاح فكان سرب من الحمير يحمل الآجر الى المدرسة وبينا كان عمر الخيام يتمشى مع جماعة من التلاميذ شاهد حماراً وقف عند باب المدرسة ولم يشأ الدخول اليها فجاء عمر الخيام وتقرب من الحمار وقرأ في أذنه هذه الرباعية :

---

(١) وتسمى هذه الفرقة السبئية . (٢) وتسمى هذه الفرقة الكاملية راجع ١٣٢ و١٣٣ من كتاب الملل والنحل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اى رفته و باز آمده بل هم كشته نامت زميان نامها كم كشته
ناخن همه جمع آمده وسم كشته ريش از پس كون در آمده دم كشته

اسيء . يا أيها الذي ذهب وعاد مرة أخرى وصار (كالانعام بل هم أضل سبيلا) قد ضاع اسمك بين الاسماء لقد اجتمعت أظافيرك وصارت ظلفاً وظهرت لحيتك في عجزك فصارت ذيلاً .

فدخل الحمار المدرسة فسأله تلاميذه عن سر ذلك فأجابهم ان الروح التي حلت في جسد هذا الحمار كانت روح تلميذ عاش وتعلم فيها لذلك لم يرغب الحمار في الدخول اليها غير انه لما شاهد رفقاءه الاقدمين رضي بالدخول .

والذي ينعم النظر في هذه الحكاية المضحكة لا يتردد طويلاً ان يعتقد بانها من القصص الملفقة المصطنعة وانها من نوع الأحاديث التي يختلقها العوام لان هذا الرجل الذي دلت حياته وآراؤه الفلسفية ومؤلفاته الجليلة ومكانته العالية بين ملوك عصره — على رجاحة عقله وسعة علمه لا يمكن ان يسف هذا الاسفاف وان ينفوه بهذا الرأي المبتذل المأفون . هذا من جهة ومن جهة أخرى ان رباعياته التي اشتهر بها والتي أودعها آراءه الفلسفية تكاد تسوق الباحث الى الاعتقاد بالحاده ونكرانه البعث والحشر والنشر وبقينه بالعدم المحض لذلك يغلب على الظن براءة هذا الحكيم الكامل من هذه العقيدة .

وقد كان ابو العلاء المعري ممن ذم هذا الرأي وهزئ به وشنعه في رسالة الغفران وفي لزومياته فقال :

يقولون ان الجسم ينقل روحه الى غيره حتى يهذبه النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

« تشاؤمها »

ان سيرة المعري والخيام وشعرهما وآراءهما في الكون تدل على انهما كانا (متشائمين) متألمين ماقتين للحياة لما فيها من شرور وآثام معتقدين ان كل ما فيها خطب وبلاء فالوجود خطب والحياة خطب والموت خطب والناس أشرار ذوو غدر وخبث وطباع فاسدة وان كل شيء في الكون خبيث ردئ وان جملة الشرور فيه تفوق جملة الخيرات وان آلام الحياة وبؤسها وشقاءها اكثر من مسراتها وأفراحها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والتشاؤم (مرض روحي) ابتلي به كثير من الفلاسفة والمفكرين من ذوي الامزجة العصبية وهو مذهب قديم نشأ في ديانة البوذيين وشاع في الشرق ودان به كثير من الحكماء فكان خالق آلامهم وعلة اوجاعهم وهذا المرض العضال يتغلغل غالباً في نفوس سكان البلاد الحارة الموبوءة بالامراض القليلة الأرزاق الفقيرة التي مافيها عمل ولا كسب وكثيراً مايحصل من الوراثة هذا عند عوام الناس وهو وقتي لايلبث ان ينقلب الى تفاؤل وفرح وسرور ان تحسنت الحالة فهو اذاً عند عامة الجمهور ضرب من الشكوى الوقتية المتولدة من (الحاجة) ومتى زالت الحاجة زال التشاؤم سريعاً .

اما عند الحكماء المفكرين فأمره عظيم وشأنه كبير فانه يتولد في نفوسهم من سلسلة التفكرات العميقة والتأملات الطويلة في شؤون غامضة وامور مبهمة لم يتوصل العقل البشري الى حل معضلاتها كالوجود والواجب وسر الوجود والخليقة وعلتها ووضعها ونواميسها والكون ومنشئه وهل هوحادث اوقديم وهل هومحدود ومتناهٍ اوهو غير محدود وغير متناهٍ والأزلية والسببية والمبدأ والمنتهى والمعاد والروح والخلود الى غير ذلك من الأسرار والألغاز التي ماتأمل فيها احد الارجعت تأملاته على أعقابها وتسرب اليه الريب ومال الى الشك قسراً لااختياراً والشك الذي هونتيجة عدم ادراك هذه المعميات هوالذي يولد (التشاؤم) و يورث الألم واليأس . وفي الحقيقة اذا فكر الانسان في علة وجود هذا الكون وفي سبب هذه الخليقة والايجاد والبقاء والانتقال الى جهة لاتعرف غايتها وعاقبتها وفي موته الذي يتخلى به عن رجائه واماله وامانيه يشعر ولاريب بهزات عنيفة في وجدانه وصدمات قوية في شعوره واحساسه واستيلاء يأس مظلم مخيف وخيالات مريعة واحلام محزنة والانسان مفطور على حب البقاء في الحياة على ما فيها من وجع وكدر وآفة البقاء العدم وفكرة العدم والفناء والاضمحلال هي التي تورث التشاؤم الذي لامندوحة عنه ما دام موقناً بها .

وقد أعدت الراحة الكبرى لمن كان معتقداً بكون له ابتداء وانتهاء أوجده خالق قدير من العدم وسيورده العدم كما أوجده وان هناك حشراً ونشراً وحساباً وعقاباً وان هناك جنة عرضها السموات والارض فيها حور عين وأباريق وكأس من معين وفاكهة ولحم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طير مما يشتهون أعدت للمؤمنين الصالحين وان هناك ناراً ملتهبة فيها ألوان من العذاب أعدت للمجرمين الآثمين .

فهذا الأمل الرائع يمنح المعتقدين راحة وسلاماً وأماناً في الحياة فطوبى للمعتقد المؤمن وويل للشاك المرتاب .

وان ابا العلاء المعري الذي تدل كلماته وأقواله على انه كان عنادياً بحتاً مرتاباً في وجود خالق صانع مدبر ، حائراً في سبب الخليقة والايجاد والفناء ، شاكاً في العقائد التي من ضمنها الحشر والمعاد والخلود — يجب ان يكون بطبيعة الحال (متشائماً) وهذا هو الواقع وانك لتجد عند قراءة (لزوميانه) صيحاته الأليمة وصرخاته الحزينة وكأنك تكاد تلمس يأسه وقنوطه في شعره من أسئلته الدالة على تحيره الكثير وارتيابه العظيم .

وهذه الآراء التي ضاق بها صدر هذا الحكيم والمصائب والنكبات التي ألمت به بفقدان بصره وموت أبيه وأمه وفقره ووهنه هي التي أشعلت في قلب الشيخ جذوة اليأس والألم فراح يكيل للأديان السباب وللأنبياء الشتم وللناس القذع ، مافتاً الحياة وسكانها مرسلاً خراطيم من نار غضبه على طبائعهم ومجاياهم ، معتزلاً عن الناس ، منزوياً قابعاً في كسر داره لتقاذفه أمواج الشكوك حتى صيرته حليف المضني واليأس والبؤس وهل هناك برهان أقوى على مقته الحياة من ايصائه ان يكتب على قبره .

هذا جناه ابي علـ ... ـي وما جنيت على احد

وقوله :

اراني في الثلاثة من سجوني ... فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي ... وكون النفس في الجسد الخبيث

* * *

تعب كلها الحياة فما أعـ ... ـجب الا من راغب في ازدياد

وقوله وهو دليل على مقته الناس :

مسخ المعاشر فالغضنفر ثعلب ... في لؤمه والناس كالنسناس
وتفكرت نفس اللبيب وقد رأت ... أشخوص جن أم شخوص أناس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عرب وعجم دائلون وكلنا في الظلم اهل تشابه وجناس

* * *

والشر طبع قد بثت غريزته مقسومة بين أنواع وأجناس

* * *

سجايا كلها غدر وخبث توارثها أناس عن أناس

وقد تزاحمت هذه الافكار في دماغ عمر الخيام كما تزاحمت في دماغ صاحبه المعري وكان الشؤم واليأس ملازمين لروحه مسيطرين على احساسه وشعوره حتى بلغ من كراهته للحياة وتشاؤمه منها انه تمنى انه لو لم يكن مخلوقاً في الدنيا .

كر آمدنم بمن بدى نامدى ورنيز شدن بمن بدى كى شدمى

به زآن بندى كه اندرين عالم خاك نه آمدى نه شدمى نه بدمى

لو كان مجيئي باختياري لما جئت ولو كانت خلقتي بيدي لما رغبت ان أُخلق . الافضل أنني لم اكن في هذا العالم ولم اجئ اليه ولم أُخلق ولم أبق فيه .

لقد علمنا مما تقدم ذكره أن كلا الحكيمين اتفقا على ان الحياة خطب وبلاء فقد اتحدا واتفقا على تشخيص الداء الا انهما اختلفا في الدواء .

« الخمرة — المنية »

كان عمر الخيام يرى ان الوسيلة الوحيدة الى النجاة من آلام الحياة السلافة . وكان المعري يرى ان المنية هي الوسيلة الى ذلك وقد وصف الخيام الخمر بما وصف به ابو العلاء الموت . وفي طاقتنا ان ندعي ان نفس المعاني التي ذكرها المعري في الموت جعلها الخيام في الخمر فقد ذهب في المغالاة بمدحها والاسراف في حبها والولوع بها وحث الناس على شربها ما جعل بعض الباحثين ان يسيئوا به الظنون و يعتبروا أقواله ضرباً من الجنون ونزعة من السفه وقد ذهب الخيام في الخمرة مذهب اكثر الشعراء والحكماء الذين كانوا يرون ان فيها راحة للنفوس وتسكيناً للأوجاع وتخفيفاً للآلام والاكدار ومما ينسب الى الحكيم الفارابي في هذا المعنى قوله :

بزجاجتين قطعت عمري وعليهما عولت أمري

فزجاجة ملئت بجبر وزجاجة ملئت بخمر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فبذي أدوّن حكمتي وبذي ازيل هموم صدري

وتدل رباعياته على انه لم يشرب لمجرد اللهو والعبث وانما اتخذها دواءً كما يتخذ المرء بعض الدواء لمرضه وانه كان يرى ان السلافة هي الوسيلة الوحيدة الى تبديد الهموم وتفريج الكروب عن الصدور فمن ذلك قوله :

مى خوردن من نه از براى طرب است في بهر فساد وترك دين وادب است
خواهم كه ببيخورى بر آرم نفسي مى خوردن ومست بودنم زين سبب است

ليس شرب الخمرة من اجل الطرب والفساد وترك الدين والأدب . انما أريد ان انفس الصعداء وانا ذاهل عن نفسي فشربي الخمرة وسكري لهذا السبب .

از آمدن بهار واز رفتن دى اورق وجود ماهمى كرد دطى
مى خورمخور اندوه كه كفتست حكيم غمهاى جهان جوز هرو تريا كش مى

بين مجيء الربيع وذهابه تنطوي اوراق وجودنا . أشرب الخمرة ولا تتألم فقد قال الحكيم ان آلام الحياة سم ودرياقها الخمر .

وقد ظن بعض الباحثين ان السلافة التي يتغنى بها الخيام في رباعياته هي (سلافة الحب) او (خمرة الحقيقة) او (السكر المقدس) وهي الخمرة الخيالية التي ينشدها شعراء الصوفية في قصائدهم مثل ابن الفارض وجلال الدين الرومي وغيرهم وفي الحقيقة ان هذا الظن باطل غير صحيح فان عمر الخيام لم يتغزل بخمرة وهمية وانما تغزل بالمشعشعة الحمراء بنت الكروم لابادة الألم الرابض في صدره والرباعيتان اللتان تقدم ذكرهما كافيتان في دحض هذا الزعم .

وقد وصف الخيام المدامة باوصاف دقيقة بديعة تدل على انه كان ممن دارس الخمرة ومارس شربها دهراً طويلاً فهو في وصفه الرائع أشبه بابي نؤاس في وصفه لها حتى لقد سن للسكارى قانوناً في كيفية تعاطيها قال :

كرباده خوري تو باخرد مندان خور يا باصنمى لاله رخى خندان خور
بسيار مخور ورد مكن فاش مساز اندك خور وكه كاه خور وبنهان خور

اذا شئت شرب الخمرة فاشربها مع العقلاء او مع مليح ضحوك ذي محيا منير ولا تشرب كثيراً ولا تفحش في الكلام اشرب قليلاً وبين آونة وأخرى وفي الخفاء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اما شيخ المعرة فقد خالف صاحبه في هذا المعنى وأكثر من ذم الخمرة وقبحها وندد بشاربيها وزعم انها سالبة العقول هاتكة الوقار مفرقة الاحباب وقد أجهز على السلافة في لزومياته فمن ذلك قوله :

وحاذر من الصهباء فهي عدوة ... من الصهب مشت في مفاصلك السكرا

* * *

البابليـة باب كل بلية ... فتوقين هجوم ذاك الباب
جرّت ملاحاة الصديق وهجره ... واذى النديم وفرقة الاحباب
ام الحباب وان أميت لهبهـا ... بمزاجها وافت كأم حباب
هتكت حجاب المحصنات وجشمت ... مهن العبيد تهضم الارباب
وتوهم الشيب المدالف انهم ... لبسوا على كبر برود شباب
واذا تأملت الحوادث ألفيت ... صهب الدنان اعادي الالباب

* * *

دبيب نمال من عقـار تخالها ... بجسمك شر من دبيب العقارب
ولو انها كالماء طلق لأوجبت ... قلاها اصيلات النهى والتجارب

* * *

تجرع موت لا تجرع لذة ... من الخمر في كاساتهم والابارق

قلنا غير مرة ان الخيام والمعرى كانا يريان الحياة خطباً وشراً يجب التخلص منها اما الخيام فقد رأى ان احسن وسيلة تنجيه منها هي (الخمرة) واما المعري فقد ذمها وكان يرى ان الموت هو الدواء الشافي وكان يتطلب الفرج على يد المنية وقد تمناها في كثير من شعره فمن قوله :

اما حيـاتي فمالي عنـدها فرج ... فليت شعري عن موتي اذا قدما
صحبت عيشاً أعانيـه ويغلبني ... مثل الوليد يقود المصعب السدما
وقـد مللت زماناً شـره لهب ... اذا دنا لخبوت عاد فاحتدما
من باعني بحياتي مبتة سرحاً ... بايعته واهان الله من ندما

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رب متى ارحل عن هذه الـ ـدنيـا فاني قد أطلت المقام
لم ادر ما نجمي ولكنه في النحس مذ كان جرى واستقام
فلا صديقي يترجى يدي ولا عدوي يتخشى انتقام
والعيش سقم للفتى منصب والموت يأتي بشفاء السقام
والترب مثواي ومثواهم وما رأينا احداً منه قام

* * *

ملت عيشي فهوجي يا منية بي وذقت فنين من بؤس ومن رغد
غدي سيوجد امسي لا ينازعني في ذاك خلق وامسي لا يصير غدى

«مصير الجسم بعد الموت»

وقد اختلف الحكيمان ايضاً في قضية مصير الجسم بعد موته فكان ابو العلاء تارة يحفل بجسم الانسان بعد موته وتارة لا يرغب في تكريمه ولا يهتم بما يفعل به لانه لا يحس ولا يتألم فمن قوله في تكريم الجسم :

خفف الوطـأ ما أظن اديم الـ ـأرض الا من هذه الاجساد
سر ان اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد

ومن قوله في عدم تكريمه :

تكرم اوصال الفتى بعد موته وهن اذا طال الزمان هباء

وقد غالى المعرى في عدم الاعتناء بالجسد حتى استحسن من عادات الهنود حرق أمواتهم .

فاعجب لتحريق اهل الهند ميتهم وذاك اروح من طول التباريح
ان احرقوه فما يخشون من ضبع تسرى اليه ولا خفي وتطريح
والنار اطيب من كافور ميتنـا غباً واذهب للنكراء والريح

وقد خالف الخيام شيخ المعرة في هذا المعنى فكان مبالغاً في تكريم الجسد موصياً الخزاف بالرفق عند جبله الطين قائلاً انها أجسام بشرية يجب ان تعامل بالحسنى .

اى كوزه گران بكوش اگرهشيارى تاجنـد كنى بر گل آدم خوارى
انكشت فريدون و كف كيخسرو بر جرخ نهادهٔ جه مى بنـدارى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ايها الخزافون اسمعوني ان كنتم منتبهين : حتى م تظلمون طينة ابن آدم . انكم قد وضعتم اصبع فريدون و كف كيخسرو على الدولاب فماذا تظنون ؟

دي كوزه كري بديدم اندر بازار بر باره كلى لكد همى زد بسيار
وآن كل بربان حال باوي ميكفت من همچو تو بوده ام ترا نيك دار

رأيت امس خزافاً في السوق و كان يركل قطعة من الطين و كان لسان حالها يقول للخزاف لقد كنت ياهذا مثلك فعاملني بالحسنى .

وقد عاش الشيخان عزبين ولم يتزوجا و كان رأي المعري في المرأة سيئاً و كان يكره النسل و يرى الزواج إثماً وجرماً عظيمين فلم يشأ ان يجني على غيره كما جنى عليه ابوه وفي ذلك يقول :

وارحت اولادي فهم في نعمة الـ عدم التي فضلت نعيم العاجل
ولو انهم ظهروا لعانوا شدة ترمي بهم في موبقات الآجل

* * *

فالبث وحيداً لا وصيـ ـفة في ذراك ولا وصيف

ومع ان الخيام عاش بلا ريب اعزب فلم نطلع على رأيه في الزواج والمرأة والنسل .

لقد علمتم ايها السادة مما تقدم ذكره ان عمر الخيام لم يأتنا بشيء جديد وانما كرر ما تكلم به قبله شيخ المعرة وترنم بعين النغمة التي كان يترنم بها حكيمنا الجليل . فسلام على الجزيرة وسلام على ربوع الشآم منبت الفحول العظام .

احمد حامد الصراف
العراقي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net